قصيدة بانت سعاد ومعارضاتها

الدكتور عمر محمد الطالب
استاذ مساعد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

المقدمة

كعب بن زهير بن ابي سلمى المزني وامه كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم وهي من بني عبدالله بن غطفان .وهي أم سائر اولاد زهير سالم وبجير (١) . ولد عند اخواله بني سحيم من غطفان وكان اكبر اولاد زهير . ويبدو ان كعبا كان على خلاف طبع ابيه ولم تسلم حياته من الاندفاع والنزوات .وكانت زوجته تلومه على تهوره واندفاعه (٢) . وقد عني والده بتربيته وتعليمه الشعر . فنهاه عن قوله بدء ذي بدء مخافة ان يكون لم يستحكم شعره فيروى له مالا خير فيه. فكان يضربه في ذلك ،وحبسه ثم اطلقه وسرحه في بهمة وهو غليم صغير فانطلق فرعى ثم راح عشية وهو يرتجز :

كأنما احدو ببهمى عيرا من القرى موقرة شعيرا

فخرج اليه والده على ناقة واردفه خلفه ليعلم ماعنده من شعر فقال زهير حين برز إلى الحي :

أني لتعديني على الحي جسرة تخب بوصال صروم وتعنق

ثم ضرب كعبا وقال له أرجز يالكع. فقال كعب :

كبنيانة القرثي موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف ابلق

ومضى زهير مع ولده كعب على هذا المنوال حتى تأكد من شاعريته فقال له : قد أذنت لك في الشعر يابني : واخذه من يده وانزله وهو صغير يومئذ فقال كعب :

أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع بعرض ابيه في المعاشر ينفق

وهي اول قصيدة قالها كعب (٣)

واجمع الرواة على ان كعبا من فحول الشعراء ووضعه ابن سلام في الطبقة الثانية وحديث الحطيئة معه يؤكد مكانته الشعرية حيث قال له: ياكعب قد علمت روايتي لكم اهل البيت وانقطاعي اليكم وقد ذهب الفحول غيري وغيرك فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا بعدك فان الناس لاشعاركم أروى واليها أسرع .فقال كعب:

فمن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما ثوى كعب وفوز جرول

(١) ينظر الاغاني ـ ١٧ ص ٨٢ .

(٢) شعر اوس بن حجر بن حجر ورواته الجاهليين ص ٥١ .

(٣) الاغاني ـ ١٧ ٨٤ — ٨٦

وتثبت حادثته مع النابغة الذبياني قوة شاعريته في صباه مثلما اجاز قوله:

تزيد الارض اهلت خفا ولميا ان حييت بها قتيلا

نزلت بمنكر العرض منها

فلم يستطع النابغة اكمال البيت فأكمله كعب بقوله: وتخشع جانبيها ان يزولا (١) :

وقد برزت قصيدته بانت سعاد كدرة من درر شعره (٢).

وقد تزوج كعب بن زهير في خلافة معاوية وولد له عقبة (العقب) الشاعر وسلمى التي تزوجت من ثوبان وكان من نسله عدد من الشعراء والعلماء والقريعي والعوبان والرماح (ابن ميادة) من ابنه سلمى :

قصيدة بانت سعاد

سبب نظمها وظروف القائها

خرج كعب وبجير ابنا زهير بن ابي سلمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى (ابرق العزاف) وهو ماء لبني أسد . وكان كعب هازئا من الاسلام شديد العصبية والعناد لذا لم تدخل الدعوة الاسلامية إلى قلبه ولم ترتق من حصيته وجفائه . فطلب إلى اخيه بجيراً ان يلحق بالرسول فيظر مايقول على ان ينتظره كعب في المكان ذاته فتقدم بجير إلى الرسول وسمع منه واسلم وبلغ ذلك كعبا فأنشد :

الا ابلغا هذي بجيراً رسالة على أي شيء ويب غيرك دلكا

على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

سقاك ابو بكر بكأس روية فأنهلك المأمور منها وعلكا

فبلغت أبياته الرسول(ص) فأهدر دمه مع من اهدر دمهم من الشعراء الذين اذاعوا في هجائه ولم يدخل الايمان إلى قلوبهم . فكتب اليه بجير ان يقدم إلى الرسول ويسلم وإلا فعليه ان ينجو بنفسه لأن الرسول(ص) قتل أناسا آذوه وشهروا بالاسلام وبه، فأحتار كعب في امره وعد

---

(١) م . س ص ٨٢ – ٨٣ .

(٢) اعتمدنا في دراستها على شرح ديوان كعب بن زهير للسكري . وشرح ابن الانباري لرشيد عبد الرحمن العبيدي . مجلة كلية الآداب العدد ١٨ . ١٩٧٤ . وكتاب مختارات من روائع الأدب في الجاهلية والاسلام لعبد السلام سرحان .

نفسه مقتولا لامحالة . ونصحه قوم بالذهاب إلى الرسول واعلان توبته واسلامه فلم ير من الامر بدأ . فنظم القصيدة معتذراً فيها إلى الرسول مادحاً إياه تائباً عن اقواله وافعاله : أقبل كعب إلى الرسول سنة تسع للهجرة إلى مسجد المدينة واناخ راحلته بباب مسجد الرسول . وكان مجلس الرسول من اصحابه مكان المائدة من القوم ، حلقة ثم حلقة وهو يحدثهم . فأقبل كعب حتى دخل المسجد فتخطى حتى جلس إلى الرسول فقال : يارسول الله الامان . قال من أنت ؟ . قال : كعب بن زهير . قال : أنت الذي يقول .. كيف يابا بكر ؟ فأنشده حتى بلغ قوله

سقاك ابو بكر بكأس روية وانهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول الله : مأمون والله . ثم انشده كعب قصيدته بانت سعاد . فلما بلغ قوله:

ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما اسلموا زولوا
زالوا فما زال انكاس ولا كشف عند اللقاء ولا خور معازيل

أشار الرسول(ص)إلى الخلق ان يسمعوا شعر كعب بن زهير وأعطاه الرسول بردته.واضاف الرواة إلى هذا الخبر بأن كعبا عرض بالأنصار في قصيدته في عدة مواضع منها قوله :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلاّ الاباطيل

وعرقوب رجل من الاوس (١). فلما سمع المهاجرون بذلك قالوا ما مدحنا من هجا الانصار فأنكروا قوله وعوتب على ذلك وطلب اليه ان يمدح الانصار بعد ان اثار حفيظتهم بقوله هذا . فقال قصيدته .

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحي الانصار
الباذلين نفوسهم لنبيهم عند الهياج وسطوة الجبار

إلى اخر القصيدة (٢) :

وتبدو الرواية الأخيرة موضوعة فلا داعي لاثارة حفيظة الانصار ضد كعب مادام عرقوب

(١) عرقوب بن نصر من العمالقه . نزل بالمدينة قبل ان ينزلها اليهود بعد عيسى .
شرح ديوان كعب ، ص ٨.
(٢) الاغاني ـ ١٧ ، ٨٦ ـ ٩١.

لم يتهم اليهم بل كان من المغالقة ومن المنطقي انهم اثيروا عندما دخل كعب مسجد الرسول وهو المعروف بعدائه الشديد للاسلام وللرسول وأنه قد أهدر دمه لتشبيبه بأم هاني بنت أبي طالب وهي ابنة عم الرسول (١) :

وقيل ان كعباً انشد قصيدته للرسول (ص) في المسجد الحرام لاني مسجد المدينة (٢) وهو قول ضعيف غير متواتر والارجح لدينا انه انشدها للرسول (ص) في مسجد المدينة كما بينا سابقاً :

وقد زعم الرواة بأن معاوية اراد انيشترى البردة من كعب اثناء خلافته فأغلى له الثمن ، ولكن كعباً أبى بيعها . فلما مات راجع معاوية اهله واشتراها بثمن باهض : ثم توارثها الخلفاء من بعده . وكانوا يخرجون بها للناس في العيدين (٣) ولم يذكر الرواة شيئاً عن أخبار كعب بعد اسلامه غير طلب الحطيئة اليه ان يمدحه ويذكره في شعره لأ نه لم يبق غيرهما من فحول الشعراء : (٤)

ويبدو ان العمر امتد بكعب بعد الاسلام حتى قال :

وأفنى شبابي صبح يوم ولينة وما الدهر إلاّ مسيه ومشارقه

وادركت ماقد قال قبلي المدهره زهير وان يهلك تخلد نواطقه (٥)

وهي اشارة يفهم منها انه عاش ثمانين حولاً أو مايقاربها : وعلى ذلك يرجح الظن بأنه مات في أواخر العقد الخامس من القرن السابع للميلاد وذهب جرجي زيدان إلى انه توفي عام ٢٤ للهجرة (٦) :

نص القصيدة وتحليلها

١) اختلفت المصادر في عدد ابيات القصيدة فقد ذكر السكري خمسة وخمسين بيتا(٧)

---

(١) الكامل ـ٢ ٢٧٤ .

(٢) الاغاني ـ ١٧ ، ٩١ .

(٣) حديث الاربعاء ـ١ ١١٩ .

(٤) الاغاني ـ ١٧ ٨٢ — ٨٣ .

(٥) شرح ديوان كعب ١٩٠ .

(٦) شعر اوس بن حجر ورواية الجاهليين ٥٧ — ٥٨ .

(٧) شرح ديوان كعب ٦ — ٢٥ .

واثبت ابن الانباري انها سبعة وخمسون بيتاً (١): ووردت ستون بيتا (٢) وقد استعان الشارح برواية السكري مع زيادات من جمهرة شعراء العرب ومن كتاب منتهى الطلب من اشعار العرب. واوردها الباجوري بتسعة وخمسين بيتا (٣)، ووردت عند آخرين في ثمانية وخمسين بيتا (٤). ونحن نميل إلى عدد الابيات التي أوردها الديوان وسندرسها على هذا الاساس :

ولا يرجع الاختلاف في رواية القصيدة إلى عدد الأبيات فقط بل إلى اختلاف الالفاظ، وترتيب الابيات (٥). وهذا الاختلاف هو الذي دفع طه حسين إلى التأكيد على عبث الرواة في القصيدة واضافاتهم (٦):

٢) واذا كان الغرض الرئيس من نظم القصيدة ، مدح الرسول (ص) فان الشاعر بدأ قصيدته بالغزل ثم انتقل منه إلى وصف الناقة، كما تعود الشعراء في الجاهلية ان يفعلوا لينتهي بعد ذلك إلى المديح الذي قصده .وقد استغرقت المقدمة الغزلية ثلاثة عشر بيتاً. واستغرق وصف الناقة ثمانية عشر بيتا اما الاعتذار والمديح وهما الغرضان الاساسيان في القصيدة فقد شملا اربعة وعشرين بيتا سبعة ابيات منها في الاعتذاروالبقية في مديح الرسول والمهاجرين :

٣) ان النهج الذي سار عليه كعب كان نهجا تقليدياً في القصيدة العربية في العصر الجاهلي من حيث البناء والصور والمعاني والاخيلة. وسلك في اعتذاره للرسول (ص) ومديحه له مسلك النابغة الذبياني واعتذارياته من النعمان ، فقد بدأ بالغزل ثم انتقل إلى وصف الناقة ومشاق الطريق وقوة الناقة التي اوصلته إلى الممدوح ليحسن الانتقال إلى الاعتذار من الرسول (ص) طمعا في كرمه وشمائله العربية الأصلية، وتصويره لخوفه وفزعه وتنكر الناس له وضيق الدنيا عليه :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم إنك يابن أبي سلمى لمقتول

(١) شرح بانت سعاد ، مجلة كلية الآداب ، ١٩٧٤ .
(٢) مختارات من روائع الادب في الجاهلية والاسلام ٣٠٣.
(٣) شرح قصيدة بانت سعاد الباجوري .
(٤) جمهرة اشعار العرب القرشي ٢٨٢ — ٢٨٧ . دائرة المعارف الاسلامية ، وجدى حـ٨ ١٥٧ — ١٥٩ فن المديح . احمد ابو حاقة ١٢٧ — ١٣٥ وآخرون
(٥) قصيدة بانت سعاد بين التاريخ والنقد ، مجلة كلية الدراسات الاسلامية .
(٦) حديث الاربعاء حـ١ ١٢١ .

ويعرض الشاعر للهول الذي يعاني منه ويبهضه بأيمان راسخ فيه نفحة اسلامية حيث يقول:

كل ابن أنثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

ولكن أمله القوي بعفو الرسول الكريم عنه يبدد اليأس عن نفسه ويدفعه الى الانتقال السريع من الموت إلى الحياة ومن اليأس إلى الامل فيقول :

أنبئت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

وإذا ورد هذا البيت على منوال بيت النابغة في اعتذاره للنعمان حيث قال :

أنبئت ان ابا قابوس اوعدني ولا مقام على زأر من الأسد

فالفرق كبير بين جمالية البيتين فاذا أشتركا في مهابتهما والخوف من وعيدهما فانهما مختلفان اشد الاختلاف في الاخلاق والمثل . فالنعمان وعيده مخيف موئس، على العكس من الرسول الكريم (ص) الذي يكمن وراء وعيده المخيف الأمل والرجاء لأنه على خلق كريم وزاده القرآن الكريم الذي نزل عليه رحمة وحلماً (١) .

مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة القرآ ن فيه مواعيظ وتفصيل

لاتأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وان كثرت فيّ الاقاويل

وهو إذ يقسم ويرجو من الرسول الاّ يأخذه بأقوال الوشاة الكاذبين وهو مدرك لافعاله السابقة ضدّ الرسول وموقفه المعادي منه ومن دينه وشدة عصبيته وعناده . يقسم بالقرآن، وبروح اسلامية تناسب مقام الاعتذار ، على العكس من النابغة الذبياني الذي يقسم قسماً جاهلياً وثنياً لايناسب مقام النعمان ولا يلتفت إلى خطئه في هذا القسم لأنه راعى طقوسه الخاصة اكثر من مراعاته للنعمان حيث يقول :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الانصاب من جسد

على الرغم من ان النابغة كان شديد القرب من النعمان ، تربطه واياه وشائج من الاعزاز والصداقة والود بينما كان كعب شديد البعد عن الرسول الكريم (ص) فقد هجا النبي وصحبه قبل الاسلام ووقف إلى جانب الشعراء المشركين كابن الزبعرى واضرابه في التشديد على ذم الرسول الكريم (ص) وصحبه والتشهير بهم وبالدين الاسلامي وما قدم كعب إلى الرسول طالباً العفو ومعلنا اسلامه الاّ بعد ان هدر دمه وضاقت به الارض بعد انتصار

(١) حديث الاربعاء ج١ ١٢٤ .

الرسول في مكة وحنين واذعان العرب كلهم لسلطان الجديد وقتل من قتل بعد الفتح من خصوم الاسلام واعداء النبي وفرار من فر ، كل ذلك ملأ كعباً فزعاً ورعباً . واكبر الظن ان كعباً حاول الفرار والاستخفاء فيمن حاول الفرار والاستخفاء ولكن الارض ضاقت به والناس تخاذلوا عنه . ونظر فاذا هو مأخوذ متهالك اذا لم يحتط لنفسه . وجاءته في اثناء هذا كله رسالة اخيه بجير .. فاستقرت عزيمة كعب على ان يستجير بعفو النبي من غضب النبي » (١).

٤) تأثر كعب في قصيدته هذه بشعراء عديدين منهم أوس بن حجر وبوالده زهير وبالنابغة الذبياني. وكانت معانيه تقترب من معانيهم في الموضوعات الثلاثة التي تناولها في قصيدته. فهو في مطلع القصيدة يصور بايجاز جميل ماصوره زهير في بيتين حين قال :

إن الخليط أجدّ البين فانفرقا ... وعلق القلب من اسماء ماعلقا (٢)
وفارقتك برهن لا فكاك له ... يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

فكلاهما معلق الفؤاد مكبل القلب مقيده الاول بسعاد والثاني بأسماء ويشبه كعب محبوبته بالغزال ويمضي في التفصيل في الطرف المكحول الغضيض والصوت الاغن والريق الخمري المشوب بالماء المذيب البارد ويمعن في وصف طبيعة هذا الماء ليعطي لنا الصورة كاملة وهو نفس مافعله زهير حيث قال :

قامت تراءى بذي ضال لتحزنني ... ولا محالة ان يشتاق من عشقا
بجيد مغزلة ادماء خاذلة ... من الظباء تراعي شادناً خرقاً
كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ... من طيب الراح لما يبد أن عتقا
شجّ السقاة على ناجودها شبما ... من ماء لينة لاطرقاً ولا رنقا

ويفصل كعب في أخلاق سعاد فهي متقلبة الطباع متغيرة دائماً كالغول ولاتفي بعهدها وتنساح مواثيقها كما ينساب الماء من الغرابيل، ومواعيدها مواعيد عرقوب فلا يغتر بوعدها فما هي إلاّ تضليل وباطلة الاباطيل وهي تستحق اللوم لأنها غير أهل للثقة، واذا فصّل كعب في وصف اخلاق سعاد فانزهيرا اوجز كل هذه الصفات في بيت واحد(٣) حيث قال :

وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت ... فأصبح الحبل منها واهناً خلقا

(١) حديث الاربعاء ، ١١٨ .
(٢) شرح ديوان زهير ، ٣٣ — ٤٨ .
(٣) ينظر حديث الاربعاء ١٢١ — ١٢٣ .

ونخلص من كل ذلك إلى ان المقدمة الغزلية في القصيدة لم تكن الا مدخلالها يستهوي السامعين ويلفتهم إلى متابعتها وكأن مقولة ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء تنطبق تمام الانطباق على مقدمة هذه القصيدة فقد سعى فيها الشاعر مسعى الشعراء الجاهلين حين يبدأون قصائدهم بالغزل ثم يخلص كعب بشكل متساوق جميل إلى وصف ناقته حين يقول :

أمست سعاد بأرض لايبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

ويمضي الشاعر في وصف ناقته بالضخامة والصلابة والسرعة كما وصفها الشعراء الجاهلون. ويقف عند اعضائها وخصائصها وخصالها وقفة طويلة لشدة اعجابه بها فهي سهلة القوائم في السير ،غليظة الرقبة ، عظيمة الوجنتين ، ضخمة شبيهة بالذكر واسعة الجانب ،ذات عنق طويل ، وجلدها قوي لاتؤثر فيه لسع الحشرات، بارزة الظهر ،واخفافها ذوابل لاحقة، وذنبها كعسيب النخلة ، وهي عريقة الأصل وهو سبب في خفتها وسرعتها ،مرفقها مفتول، وثديها مخارج اللبن فيه جيدة، وذات انف افنى وعنق اتلع وخد سهل. ولم يترك كعب صفة من الصفات الجيدة التي تناولها الاقدمون في وصف نوقهم إلا ولصقها بناقته ،وقد ظهر اثر المدرسة الأوسية واضحاً في هذا الوصف . يقول اوس بن حجر واصفا ناقته :

حرف أخوها أبوها من مهجته وعمها خالها وجناء منشير (١)

ويقول كعب :

حرف أخوها ابوها من مهجته وعمها خالها قوداء شمليل

ويقول زهير واصفا ذيل ناقته :

وتلوى بريان للعسيب تمره على فرج محروم للشراب مجدد (٢)

ويقول كعب :

تمر مثل عسيب النخل ذا خصل في غارز لم تخونه الأحاليل(٣)

وهو في اعتذارياته شبيه باعتذاريات النابغة وفي وصفه الرسول (ص) عند مديحه له

(١) ديوان اوس بن حجر ، ٣٠ .
(٢) ديوان زهير ٢٢٤ .
(٣) قصيدة بانت سعاد بين التاريخ والنقد م س .

حيث شبهة بالليث شبيه بتشبيه زهير لهرم بن سنان بالليث عند مدحه له ولكنه فصل في تشبيهه مالم يفصله زهير (١).

وهو لم يتأثر بالمعاني والصور فقط بل تأثر بالشعراء الجاهليين ايضا في استعمال الالفاظ الغريبة والصعبة ولاسيما عند وصفه للناقة والأسد وجاءت تراكيبه خشنة صعبة، على العكس تماما من الافتتاحية الغزلية ومدح الرسول (ص) فقد وردت فيها الفاظ جميلة وواضحة وتراكيب قوية الأداء مؤثرة اشد التأثير مما يذكرنا بعلقمة طرفة تماماً عند وصفه للناقة ،ولعل «للناقة واعضائها مسميات خاصة بها كان على الشاعر ان يستخدمها لتأدية مايريد التعبير عنه بصورة واضحة جلية ومثل هذا ينطبق على وصفه للأسد»(٢).

٥) التأثر الحسي بالبيئة :

إن التأثر الحسي بالبيئة يبرز في الموضوعات الثلاثة التي طرقها في قصيدته : فاذا ما تغزل بسعاد شبهها بالظبي في سواد عينيها وانها فاترة الطرف ، جميلة الصوت ولايمنعه استرساله في وصف محاسنها من تشبيه ريقها بالخمرة التي علت بالماء وهو مدرك ولا بد ان الاسلام قد حرم الخمرة ونهى عن شربها : ولم تثنه مؤثرات البيئة عن ذكرها امام الرسول (ص) وصحبه وفي مسجده وهو قادم للاعتذار وطلب العفو : وتدفعه مؤثرات البيئة إلى الاهتمام بتجسيد برودة الماء التي علت بها الخمرة كأجمل مايكون التجسيد وأبدع ماتكون الصورة الشعرية فالماء عذب بارد صاف في منحنى رملي تكتنفه صغار الحصى ابعدت الرياح الهابة عنه الاوساخ والادران صاف وملأته سحابة بيضاء سارية. ليلا للتأكيد على صفاء الماء وبرودته ، حيث يبرد الجو ليلا :

شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تجلو الرياح القذى عنه وافرطه من صوب سارية بيض يعاليل

انها حرارة الصحراء وقله مياه الغدران الباردة تلك التي دفعته إلى ان يبدع في تجسيد هذه الصورة على الرغم من ان الاستطراد واضح فيها وكان في امكان كعب تجاوزها لو ان الاسلام دخل قلبه في الصميم واضعف لديه مؤثرات البيئة القوية التي بدت وكأنها اقوى من ايمانه بالاسلام . ويدفعه حماسه وهو يصف اخلاق سعاد المتبدلة وخصالها المتغيرة

(١) حديث الاربعاء ط ١٢٥ .
(٢) قصيدة بانت سعاد بين التاريخ والنقد م س .

فتظهر مؤثرات البيئة قوية فيشبهها بتلون اثواب الغول وهو يدرك اولا بان الغول من الاشياء التي عفا عليها الاسلام : ولكنها مؤثرات البيئة التي تجذرت في نفسه قوية لاتقاوم ، واذا ماراد ان يصور وصلها لم يجد تشبيها غير الغرابيل التي تسيح منها المياه اذا وضعت فيها ولا تتمكن من مسكها .

وتظهر مؤثرات البيئة بشكل اشمل في وصفه للناقة وهو امر بدهي لأن كعبا كرجال عصره احب الناقة والفرس وتعلق بهما ، وتلعب الناقة دوراً مهماً في حياته القلقة المضطربة التي كثرت فيها الاسفار وسادها الانتقال من مكان إلى آخر ، فهو لايستطيع الوصول إلى سعاد التي اضحت بعيدة كل البعد يعسر الوصول اليها الا على ظهر ناقة شديدة غليظة سريعة خفيفة الحركة لاتعرف معنى للوهن والتعب ذات همة عالية ، قد جربت الاسفار الطويلة . تستطيع بلوغ الاماكن البعيدة التي لايستطيع غيرها من النوق الوصول اليها ، واذا ماشتدت الهاجرة لاتكسل ولاتتوانى وناقة كعب غليظة الرقبة ممتلئة الرسغ تفضل جميع النوق في عظم خلقها . وقد خرج كعب على ماعتادت عليه العرب في وصف الناقة كما يقول الاصمعي :

« هذا خطأ في الصفة لأنه قال هي غليظة الرقبة وخير النجائب مايدق مذبحه ويعرض منحره »(١) وذهب ابو هلال العسكري مذهب الاصمعي : « من خطأ الوصف قول كعب ابن زهير : ضخم مقلدها لأن النجائب توصف برقة المذبح »(٢) ونحن نرى بأن وصفه لها بضخامة الرقبة يتماشى مع وصفه لضخامة خلقتها ولاينبو عن النوق ولايخرج عن المبالغة والتفخيم المتين اللتين سادتا الشعر العربي قبل الاسلام وانما يدلل على قدرتها الكبيرة في قطع المسافات الطويلة وانها أقوى على السير من غيرها ويمضي كعب في وصفه لناقته بتأثيرات بيئية ، فيصفها بكرامة الأصل ، ملساء الصدر والخاصرة صلبة لم تجلب ولا تنال منها الحشرات والهوام ايذاء . وجبهتها صلبة ملساء لم تنتج ولم تحلب فاحتفظت بقوتها عظيمة الذنب كثير وبره تمر به على ضرعها لطوله وعظمه ، وقد عد السكري ذلك عيبا في وصف الناقة حيث قال : « خطأ ان توصف بعظم الذنب وكثرة الهلب وافضل منها

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ، ١١ ،

(٢) شرح بانت سعاد ، ٥٣ .

للركوب ان تكون جداء قصيرة الذنب واذا كانت للحلب فسبوغ الأذناب وكثرة الهلب يستحب فيها » (١) :

ونحن نذهب إلى خلاف هذا الرأى فان حب كعب لناقته يدفعه إلى المبالغة في وصف ضخامتها للاستدلال على قوتها وصلابتها وشدة سرعتها . وينتقل كعب ثانية من وصف جسد الناقة إلى وصف رأسها : انفها اقنى ، واذناها كريمتان وخداها سهلان ، اما عصب رجليها فقوي واخفافها قوية صلبة وساقاها طويلان كانهما ذراعا امرأة ثكلى تنوح وتلطم بكرها فهي في اشد حالات لوعتها احتداما في اللطم والنواح وهي تقطع قميصها عن صدرها من شدة اللوعة والحزن :

شد النهار ذراعا عيطـــل نصف قامت فجاوبهـا نكد مثاكيـــل
نواحة رخوة الضبعين ليس لهـــا لمـا نعى بكرهـا الناعون معقول
تغـري اللبان بكفيهـا ومـدرعهـا مشقـق عن تراقيهـا رعابيـل

ان هذا التشبيه الرائع لخلق صورة كاملة للناقة المحبوبة تدلل على براعة الاداء الفني في هذه القصيدة . وهي تذكرنا بالبراعة الفنية في وصفه لماء الغدير الذي مر ذكره .

ان الصور البيئية التي والف بينها كعب لاعطاء الصورة الكاملة لعظيمة خلق ناقته وجمالها ووقوفه المتملىء عند جزئيات جسدها لايدلل على انه عاش حياته وعرف بيئته بعمق ولايدلل على براعته الفنية في المزج بين اللوحات الجسدية المتحركة وبين جوه النفسي الخاص فحسب وانما تمزج هذه اللوحات الفنية بين صلابة الناقة وقوتها وبين صلابته وقوته وشجاعته . وما تكراره للابيات التي تعطي معاني الصلابة والقوة لناقته إلا تأكيد على تلك الصلابة والقوة وهي بالتالي تأكيد على صلابته وقوته . لأنه يقترن بناقته اقترانا تاما في رحلته الشاقة تلك ، وهي ليست رحلة للوصول إلى سعاد المحبوبة بقدر ماهي رحلة شاقة ماديا ومعنويا ، جسديا ونفسيا للوصول إلى الرسول (ص) لتقديم الاعتذار اليه واعلان اسلامه في حضرته ، وهو موقف مهول مرعب كما سيبدو في الابيات التالية لكعب والتي سنعرضها في مناسبتها .وقد عاب عليه بعض الباحثين هذا التكرارفي وصف صلابة الناقة وقوتها وعدوه تكرار معيبا (١) : بينما قبله آخرون وبرروه وبحجة انه

(١) شرح الديوان ، ١٣٠.
(٢) قصيدة بانت سعاد بين التاريخ والنقد .

جاء بالفاظ مختلفة» (١) : ونحن نرى ان في هذا التكرار اداء فني متقن للتأكيد على صلابته وشجاعته من خلال تأكيده على صلابة ناقته وقوتها وتحملها طول المسافة وحرارة الجو تلك الحرارة التي لم تتحملها الحرباء وكأنها شويت بالنار ، والجنادب منتبة من لهف الهجير ، وحادي القافلة يطلب إلى القوم ان يلجأوا إلى القيلولة لعدم تحمل الأبل الاستمرار على المسير : فكيف يتحمل انسان ذلك مادامت حيوانات الصحراء أصلب وحشراتها عاجزة عن تحمل شدة الهجير ؟ اما هو وناقته فأقوى من هجير الصحراء وأصلب من حيواناتها وحشراتها ، فهي دؤوبة في سيرها ينبع العرق من ذراعيها وهما في شدة السير والتهام الفيافي ، وقد تلفعت البيداء بجبالها وفيافيها بالسراب : وليس هذا فحسب وإنما حاول كعب ان يخلق نمطا من الاجواء القصيصية لاعطاء البعد النفسي له في رحلته الشاقة المترقبة ، وفيها تصوير للتوحد الذي هو اقرب إلى التصعلك . فلا نرى في لوحة الرحلة غير الناقة والصحراء والجبل المتلفع بالسراب والحرباء والجنادب بعد ان ابتعد عنه الاصدقاء وتجنبه المعارف وعافه الاحباب واهدر دمه وفارقه الأخ والصحب ولم يبق امامه في هذه السفرة الطويلة غير كلمة واحدة من رسول كريم تعيد إلى نفسه الاستقرار وتدفعه إلى التشبث بالحياة ،ليحيا كما يحيا بقية الناس :

يوما يظل به الحرباء مصطخماً ... كأن ضاحيه بالنار مملول
كأن أوب ذراعيها وقد عرقت ... وقد تلفع بالقور العساقيل
وقال للقوم حاديهم وقد جعلت ... ورق الجنادب يركضن الحصى قبلوا
شد النهار ذراعا عيطل نصف ... قامت فجاوبها نكد مثاكيل

يهمل طه حسين في حديثه مع صاحبه حديث الناقة وكأنها زائدة في حدث القصيدة (٢) وهذا أمر شديد الغرابة لدى باحث كبير كطه حسين.بل ان الوقوف عند موضوع الناقة يثير أكثر من مسألة :

أولا : انها المعادل الموضوعي لسعاد : فاذا كانت سعاد قد خذلته وتنكرت له فالناقة قد رافقته على حبه الشديد لها : فهو يتغزل بجمالها كما تغزل بجمال سعاد : بل اكثر عمقاً وتأثيراً فاذا جاء تغزله بسعاد تقليديا تذكريا ، فان غزله بالناقة فيه من الصور الايحائية

(١) م . س عن الاسعاد هامش ٤٨ ص ٥٩.
(٢) حديث الاربعاء ١٢٣ .

المتجددة والتأكيد ماهو ابعد اثراً واكثر عمقاً ، انه التعويض الشجاع لفقد يبدو مع مرور الزمن لاقيمة له . فاذا لم تكن سعاد خليقة به . فالناقة (هو) شجاعة عنيدة صامدة متوحدة ساعية لهدف ، هو هدفه ، فهي جزء منه وهو جزء منها فهي كحصان امرىء القيس في معلقته ، لقد كان فقد سعاد السبب الأساس في هذا الوقوف المتأني من الناقة المحبة المحبوبة . المتحركة المتلاحمة مع قائدها كعب ، فهي على العكس من ناقة طرفة (الصورة) فناقة كعب هي الحياة والأمل والمستقبل الموعود المترجي المنيء :

ثانيا : الناقة بشجاعتها وقوتها وصمودها وتوحدها هي كعب بن زهير وهو اذ يصف الناقة بكل هذه الخصال الحميدة لايصف الا نفسه التي سعى إلى ان يجعلها تمهيداً لرضا الرسول (ص) عنه على الرغم من مواقفه الخطيرة منه ولكنه رجل شجاع شهم يطلب المغفرة من رسول كريم عرف بالسماحة والشهامة والعفو عند المقدرة :

ثالثا : الناقة هي الوسيلة للوصول إلى حضرة الرسول الكريم (ص) ، فلايمكن الاستغناء عنها في بيئة صحراوية ولرجل تشبع بالعصبية الجاهلية واثرت فيه البيئة كل هذا التأثير الكبير وهكذا نجد التلاحم عظيما بين ماسمى بالغزل ووصف الناقة والاعتذار والمديح للرسول (ص) انها الوحدة الموضوعية والعضوية معاً والذي يقود كل جزء منها إلى الجزء الآخر حتى نهاية القصيدة :

ان وصف الناقة جزء أساس في القصيدة لايمكن تجاهله لدى اي باحث تشبع بجمال القصيدة وادائها الفني الرفيع:

وماذا عن الجزء الاخير من القصيدة الاعتذار والمديح وتأثير البيئة فيهما ؟!

ان الشاعر وهو يصور مشاعر الرهبة في حضرة الرسول (ص) وما سمعه عنه لم يجد تشبيها له غير الفيل لضخامته حتى انه توهم بأنه أكثر الحيوانات قوة سمع:

وربما عزا ذلك لكبر اذنيه والشاعر مولع بالمبالغة والتفخيم وجاءت صورة الفيل المرتعد الخائف قبل ان يسمع العفو ويحصل على الامان من الرسول (ص) جميلة رائعة على العكس من البيت السابق عليها :

واذا ماراد ان يجد تشبيها للرسول لم يجد غير الاسد والسيف : وهو يعطي لهذين التشبيهين اجمل مالديه من اداء فني فهو يصف هيبة الرسول (ص) بهيبةأسد لم يبرح أكمته بعد ان اصطاد

فريسة ومزقها واطعم من بقاياها اولاده حتى باتت الحمر الوحشية الخائفة عازفة عن الاطعام والاجترار لشدة هلعها وخوفها من هذا الضيغم المهيب :

لذاك أهيب عندى اذ أكلمه ... وقيل إنك مسبور ومشول
من ضيغم من ضراء الاسد مخدره ... ببطن عثّر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما ... لحم من القوم معفور خراديل
إذا يساور قرناً لايحل له ... ان يترك القرن إلا وهو مغلول
منه تظل حمير الوحش ضامرة ... ولا تمشى بواديه الاراجيل

إن هذه الصورة الجميلة التي اعطاها الشاعر للرسول (ص). هي بالأ ضافة إلى جمالها الفني تعبر عن الواقع النفسي الخائف للشاعر المذعور الطالب للمغفرة والامان كما سنرى . وهي بحركة الجزيئات الموجودة في داخل الصورة تعكس الوضع النفسي المتقلب للشاعر بين طمعه بالعفو وخشيته من العقاب . وهي ليست استطرادا كما قال بعض الشراح وانما جزء مهم من الصورة لاتكتمل اللوحة بدونه . ونحن نعجب كيف اهمل كاتب حساس ومتذوق رفيع للشعر مثل هذه الصورة ولم يعرها اى اهتمام (١).

واذا ما شبه كعب الرسول (ص) بالسيف لم يأت بجديد وحتى عندما يكون هذا السيف مهنداً ولكن الشاعر خصّ هذا السيف بصفة لم يسبقه أحد اليها انه من سيوف الله ومشهر دائماً في وجه الاعداء والمشركين ، وهكذا جمع كعب في الاستضاءة به بين الرسول وسيف الله المسلول حتى اصبحت هذه الصفة بعد ذلك من صفات خالد بن الوليد كناية عن شجاعته وقوته وشدة بطشه بالاعداء (٢).

وهكذا لم يجد كعب اقوى واعظم من الأسد والسيف ليشبه بهما الرسول (ص) ولكنه عندما مدح المهاجرين اعطاهم صفات بيئية يفخر بها العربي ، فهم شم الانوف ، ابطال شجعان ، لباسهم الدروع السابغة لأنهم لايعرفون معنى للراحة حتى يستتب الحق بانتشار الاسلام وإذا ما وقف الشاعر واصفاً الدروع التي يرتديها صحب الرسول وقف وقفة متأملة واختار لتشبيهه للدرع بثبات انتزعه من البيئة الصحراوية (كأنها حلق القفعاء مجدول)

---

(١) حديث الاربعاء ١٢٣.

(٢) قال النبي (ص) في غزوة موته : ثم اخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه . ونقل ابن كثير انه (ص) قال ايضا : اللهم انه سيف من سيوفك انت تنصره . قال ابن كثير فمن يومئذ سمي سيف الله ، السيرة النبوية ، ابن كثير ، ج٣ ٤٦٩ ، ٤٦٦ .

فهم قد تعودوا على النصر ولا تخيفهم الهزيمة لأنهم مقبلون دائماً على اعدائهم لايعرفون للادبار معنى واذا ماشبه مشيهم اختار أحب الحيوانات اليه واقربها إلى نفسه (الجمال) واعطاها صفة البياض المستحبة. وجاءت المقابلة بين (الجمال الزهر يعصمهم ضرب)وبين (اذا عرد السود التنابيل)رائعة جدا لبيان عظمة المهاجرين وخور وجبن اعدائهم . وقال شارح الديوان «يقال انه عرض بالانصار في هذا البيت فيما قال الذى اراد قتله عند النبي (ص) (١) وقيل ان ماأثار الانصار ضد كعب انه قال الجمال الجرب ويروي السكري « الجرب المطلية بالقطران فأراد عليها الدروع فهم يشبهون الجرب » (٢) . ونحن لانرى هذا ولا ذاك وماهي إلا من باب التأويلات القصصية التي تناقلها الرواة . وما اغضب الانصار فعلا ليس ذمهم او ذم المهاجرين وكيف يسلك هذا المسلك شاعر خائف اهدر دمه وتنكر له الأهل والصحاب وجاء إلى حيث يجلس الرسول (ص) إلى صحبه من المهاجرين والانصار ليعتذر ويطلب العفو والامان واذا كان غضب الانصار قد اشتد فيعود ذلك إلى ماقبل الوصول إلى هذه الابيات في الوقت الذي كشف كعب عن نفسه ، فاثار حضوره الانصار لما عرف عنه من عداء شديد للرسول (ص) والمسلمين ولاقذاعه في ذمهم مع الشعراء المشركين :

٦) الازمة النفسية وتكامل التجربة الشعورية

ان التغيير الذي طرأ على الجزيرة العربية بظهور الاسلام ومن ثم انتشاره ودخول العرب في الدين الجديد . جعل كعبا يقف موقف التنازع والحيرة وهو الذي عرف بعصبيته وعناده وحياته القلقة ، البيتية والقبلية، وعدائه الشديد للرسول والاسلام ،فما ان استتب الامر للمسلمين واهدر دمه مع من اهدر من دماء الشعراء الشتامين للاسلام :حتى كان عليه ان يقرر : ويبدو ان حب الحياة لديه اقوى من العصبية القبلية فما ان جاءه كتاب بجير حتى اسرع إلى المدينة لاعلان اسلامه امام الرسول (ص) وطلب العفو والامان منه. في هذا الجو النفسي القلق ولدت قصيدة بانت سعاد باجزائها الثلاثة المتفاعلة والمتكاملة لخلق اللوحة الكاملة لكعب يعرضها امام الرسول والمهاجرين كمتهم يدافع عن نفسه ويطلب البراءة من حكامه . ويلعب الزمن دورا عظيما فيها فتتوزع بين ماض وحاضر يأخذ

(١) شرح الديوان ، ٢٤

(٢) م . س ٢٤ — ٢٥

الماضي واحدا وثلاثين بيتا ويأخذ الحاضر اربعة وعشرين بيتا . وليس الزمن وحده المعبر عن قلقه النفسي وانما استعان بالادوات الفنية الاخرى كالموسيقى الداخلية والخارجية والصورة والتركيب : فقد اختار وزن البسيط لقصيدته «فقد بدا مناسبا بايقاعه الهادىء الرصين لشفافية الأسى المنساب في قصيدة اعتذاره إلى الرسول (ص) ان وضوح مسلك الربط بين ايقاع البحر وطبيعة الغرض الشعري عند كعب قد يغري بالنظر في بحور نماذجه» (١) . ان كعبا باختياره بحر البسيط يسعى إلى ان يظهر امام الرسول (ص) وصحبه بمظهر الانسان الهادىء التائب السائل للغفران ليعطي صورة معكوسة لتلك الصورة التي عرفت عنه بتهوره وعصبيته وكرهه للاسلام والمسلمين :

ولم يقتصر حرص كعب على اختيار الموسيقى الخارجية فقط بل سعى إلى اختيار الايقاع الداخلي والموسيقى الداخلية لاظهار مناخه النفسي ، ويبدأ هذا الايقاع الحزين مع بدايات القصيدة ، ويظهر العويل الباكي الحزين ممتزجا بين القافية اللامية المنسابة وبين ايقاع الضمة والواو التي قبلها مما يكسب اللام امتدادا اكبر واسى اشد وبكاء اعظم «فلا يحجب ان يتعاور الشعراء هذا النمط من الوزن والقافية في قصائدهم ذات الطابع النسيبي الحزين فقد وردت نماذج من وزن البردة وقافيتها في ديوان الشماخ وديوان ابن مقبل وديوان عبده بن الطبيب والمفضليات » (٢)

وقد اعانه تكرار الالفاظ مثل كلمة (سعاد) وتكرار الحروف على التعبير عن جو الأسى النفسي الرقيق بالنسبة اليه للماضي المتمثل في سعاد ، فقد هجره هذا الماضي الحبيب كما هجرته سعاد ، فهي معادل موضوعي للماضي الذي تبدل وتقضى مع ظهور الاسلام ، ويلجأ كعب في البيت الثالث إلى المعاظلة باقتران الضاد والذال والظاء للتعبير عن مدى الظلم الذي عاني منه الشاعر من هجر الحبيبة له : « استيعاب طبيعة العلاقة بين الجرس الصوتي والمعنى : ذلك ان نطق هذه الحروف الثلاثة يجبر الناطق على تحسس مجرى الظلم وممارسة تذوقه في فمه ... وذلك مالا نزعم ان كعبا تعمده تعمداً ولكننا نحسب انه وفق اليه فابدع (٣) » ولجأ إلى اللوحات الفنية والغنية المعبرة في وصف ماء الغدير ليعطي عذوبة

---

(١) اوس بن حجر ، ٥٥٣ — ٥٥٤

(٢) م س ٥٥٤ — ٥٥٥ .

(٣) م . س . ٥٥٥

الماضي . كما لجأ إلى المقاطع المتناغمة وتكرار الحروف والاستدراك والنفي ليمزج بين الايقاع النغمي والايقاع النفسي الحزين لتبدل المحبوبة وتغيرها وتقلبها وساعده في ذلك التشبيهات الجميلة التي تفاعلت مع بعضها لخلق لوحة الأسى والحزن مع الايقاع الحزين والالفاظ المعبرة والتراكيب التي تدلل على قدرة ابداعية لدى الشاعر .

« ان كعبا يمتلك حسا نغميا مرهفا لايكاديدانيه فيه أحد من شعراء مرحلته الا الشماخ »(١). ولعلنا ادركنا بان الغزل في القصيدة لم يكن مجرد مدخل إلى الغرض الاصلي من القصيدة بل هو جزء مهم ومتلاحم موضوعيا وعضويا للوصول إلى الهدف الذي اراده الشاعر في القصيدة لان الماضي له علاقة بحاضر الاعتذار وطلب العفو ومن ثم المديح .

وجاءت النقلة البارعة بين سعاد ووصف الناقة دالة على التفاعل بين الماضي المحبب الذي تغير وتبدل بحيث يصعب الوصول اليه واعادته حتى بالنسبة لفارس شجاع صبور على تحمل المشاق مع ناقة صلبة قوية ضخمة ، واذا بهذه الناقة الاصيلة تقوده إلى الحاضر إلى الرسول (ص) وصحبه بدلا من ان تقوده إلى سعاد (الماضي) ويتمثل العنصر النفسي للشاعر في الاندفاع والشجاعة في لوحة الرحلة وكأنه يقدم للرسول (ص) صورة بديلة ومختلفة لما تناقله الوشاة عنه وما وشاه الواشون ضده حتى اهدر الرسول (ص) دمه ، وهو يعلم حق العلم ان الرسول الكريم (ص) ذا الخلق الرفيع يقدر الشجاعة حق قدرها ويكبر الفرسان والفروسية ولم تخل لوحة الرحلة من تصوير لجوانب حياة كعب العنيفة والقلقة والدالة على الوحدة القريبة من الصعلكة نتيجة لمشكلاته العائلية والقبلية الخاصة. وكانت الناقة وهو يصفها بتلك الدقة والتأني ممثلة لصراعه النفسي الضعيف وهو يقطع رحلة شاقة ومخيفة ، وقد تكون مهلكة بين الماضي الذي ودعه إلى غير رجعة والمستقبل الذى ينتظره والذى يشكل الزمن الحاضر بالنسبة للقصيدة . وقد ساعده في اظهار لوحة الرحلة بذلك الشكل الفني العميق تلاحم الالفاظ الغريبة والتراكيب القوية والايقاع المتناغم والتشبيهات الجميلة والصور المتحركة لتعبر معاً عن حالته النفسية القلقة والتي ستزداد شدة مع اعتذاره ومن ثم مديحه للرسول (ص) ، فهو ينتقل نقلة بارعة إلى هدفه ويخلص من الماضي إلى الحاضر بشكل فني أخاذ فيه ايقاع الاسى والقنوط :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم إنك يابن أبي سلمى لمقتول

---

(١) م س ٥٥٧.

ان الأسي القنوط الذى صبه له الناس بمجافاتهم له وانقلابهم عليه كما انقلب عليه ماضيه:

وقال : كل خليـل كنت آمـلـه لاألفينك إني عنك مشغول

دفعه — وهو الشجاع المقدام — إلى القنوط والاستسلام فاستعان بالحكمة ، والحكمة التي اوردها تعبر عن نفسه القانطة اليائسة ، فهي جزء مهم من القصيدة وليست استطرادا أو مجرد أبيات ذات روح اسلامية — وهي في رأينا اقرب إلى اقوال الاحناف في الجاهلية يتقدم بها إلى الرسول ليبعد عنه الشرك ويحصل على العفو :

فقلت خلوا طريقي لاابالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن انثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

ويظهر الاضطراب النفسي واضحاً جليا في اعتذارياته ولم يجد سبيلا يسلكه أفضل من السبيل الذى سلكه النابغة الذبياني في اعتذاره من النعمان بن المنذر ، وقد اجاد كعب في تصوير فزعه وخوفه فذكر نبأ وعد الرسول له والأمل في العفو وهو مدرك خير الادراك اخلاق الرسول (ص) العالية وعفوه عند المقدرة . وذكر هدى القرآن ومواعظه . كما ذكر الوشاة والاقاويل وحاول ان يتخلص من جريرة اعماله . وتعد هذه الابيات في الاعتذار من اجمل واصدق ماقيل في الشعر العربي على الرغم من ظهور طابع التقليدية فيها :

ومضى في مدح الرسول (ص) باسلوب تقليدي في أول الأمر فشبهه بأسد في عرينه أصطاد فريسة واطعم منها اشباله ولم نلمس جديدا في هذا المديح فقد تكرر كثيراً في الشعر الجاهلي وربما اعانه ذلك إلى التفصيل في لوحه الأسد وكأن الشاعر يطمع برعاية الرسول (ص) له كما يرعى الأسد أشباله ، فاذا انتقل إلى الصورة الثانية وشبه الرسول بأنه سيف مسلول من سيوف الله لم يزد على البيت الواحد ولم يفصل في الصورة كما فصل في الأسد ولعل جهله بالاسلام وخشيته من الوقوع في الخطأ دفعه الى الايجاز . وفي كلتا الصورتين اعطى للرسول (ص) صفة القوة لأنه كان يحس بكل الضعف والخور تجاهه فلم يعط غير صور مادية . ووقف في مديحه عند صفة القوة والمهابة ولم يذكر صفات كثيرة معروفة عن الرسول (ص) ونبله وكرمه . لأنه لم يكن يرى في الرسول (ص) في لحظته تلك غيرانه الرجل الذي يملك بين يديه حياته وموته . ولو لم يكن خائفاً فزعاً لوقف وقفة طويلة ومغايرة في مديح الرسول الكريم كتلك الوقفة التي وقفها في مدح المهاجرين

ويدفعنا الحديث عن مديح الرسول (ص) بسرعته وعدم التأني فيه الى التساؤل في هذه الوقفة المتأنية والمبدعة التي وقفها كعب في مدح المهاجرين ، فقد جمعت فيها الخصائص المادية والمعنوية ، وكانت اللوحة التي قدمها الشاعر لشجاعتهم لوحة معبرة ودقيقة ضم فيها الجزئيات كوصف الدروع والسلاح – الى الكليات حتى ينتهي بالقصيدة نهاية تبلغ ذروة الابداع والايقاع المتناغم الجمالي بين المقاطع الاربعة حيث اعطى الصورة عمقها الغني وابعادها المتكاملة لينتهي بقصيدته نهاية رائعة معادلة لمطلع القصيدة حيث يقول :

لا يفرحون اذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا
لا يقع الطعن الاّ في نحورهم ما إن لهم من حياض الموت تهليل

يرى بعض الباحثين بان القدرة الابداعية التي ظهرت في قصيدة كعب عند مدح المهاجرين بشكل اقوى من مدحه للرسول (ص) الى العصبية القبلية : «فنحن نعلم ان المهاجرين قرشيون من كنانة ، ولكعب في كنانة خؤولة . اما الانصار فحسبهم ان يكون اكثرهم من الخزرج ليستثير في نفس كعب مشاعر من نوع آخر فيسكت عن ذكرهم بشيء» (١). وقد عرفنا في كعب عصبية جاهلية شديدة فلا عجب ان يحدث هذا ولما يدخل الاسلام بعد الى قلبه ويتغلغل في اعماقه . فاذا كان المهاجرون ابناء خؤولته يعرفهم ويعرفونه، وقد عاش بينهم فهو يجيد في مدحهم بروح العصبية الجاهلية بينما لايعرف عن الرسول(ص) ولا دينه الشيء الكثير فيحتار في مديحه وينظر اليه كما ينظر الى حاكم يطلب منه العفو والامان ولا يجد فيه شيئاً اقوى من الرهبة والقوة والعفو عند المقدرة .

مكانتها :

وقد احتلت قصيدة بانت سعاد مكانة دينية كبيرة حيث منح الرسول بردته لكعب عند انشادها. ولها قيمة فنية على الرغم من الاسلوب التقليدي الذي سلكه الشاعر في نظمها ولكنها مفعمة بالاصالة وصدق التجربة الشعورية وبالايقاع النغمي العالي واللوحات الغنية المبتكرة والتي افاد فيها مما ورثه من الشعر الجاهلي ومن مؤثرات البيئة الاخرى .

وتظهر اهميتها التاريخية في انها اصبحت جزءاً من كتب السير ة لا يخلو كتاب منها واهتم بها الشراح والنحويون واللغويون والادباء فعارضوها وخمسوها وشطروها واشهر

(١) اوس بن حجر ، ٤٧٥.

من عارض هذه القصيدة ابن الساعاتي المتوفي عام ٦٠٤هـ والبوصيري المتوفي عام ٦٩٦ ومحمد بن علي العمراني المتوفي عام ٥٦٠ ومحي الدين بن عبد الظاهر المتوفي عام ٦٩٢ وشبيب بن حمدان المتوفي عام ٦٩٥ والعزازي عام ٧١٠ وابن سيد الناس اليعمري المتوفي عام ٧٣٤ وابو حيان الاندلسي المتوفي عام ٧٤٥ وابن نباتة المصري المتوفي عام ٧٦٨ وترجمت إلى اللاتينية ترجمها المستشرق (كارديوس جونز ليت) عام ١٧٤٨ والى الفرنسية ترجمها المستشرق (أ. روكي ورنيه بوسيه) وترجمها (سكوبا بيكوسلاوسكي) إلى البولونية وترجمها (لويل) نثرا إلى الالمانية و(لروكرت) شعراً إلى الالمانية ايضاً وترجمها (روهاوس) إلى الانكليزية و (كبريالي) إلى الايطالية و (الكاملي) إلى الفارسية و (ملحق زاده) إلى التركية (١) .

معارضات بائت معاد

المعارضة الشعرية :من مادة عرض، وعارض بمعنى اخذ في ناحية منه وادخل دخولا فيه ليست بمباحته . والمعارضة ان يعارض الرجل المرأة فيأتيها بلا نكاح ولا ملك او ان يعارض فحل الابل النوق معارضة فيضر بها من غير ان تكون من الابل التي كان الفحل رسيلا فيها . وعارضته في المسير أي سرت حياله وحاذيته ويقال عارض فلان فلاناً اذا أخذ في طريق وأخذ في طريق آخر فالتقيا. وعارضته بمثل ما صنع أي اتيت اليه بمثل ما أتى وفعلت مثل ما فعل (٢). ومن هذا المعنى جاء اصطلاح المعارضة في الشعر :ان ينسج شاعر على منوال قصيدة معينة لشاعر آخر أو يأتي بمثلها في وزنها وقافيتها ورويها وبعض معانيها او في بعض اغراضها او في موضوعها.

وتحصل المعارضة نتيجة لاعجاب شاعر بقصيدة سابقة عليه لشاعر معين، لها مكانها وثقلها في الأدب العربي، او نتيجة لاعتداد الشاعر بنفسه فيسعى في معارضته إلى منافسة شاعر قديم في قصيدة من قصائده المشهورة ليباريه او يعلو عليه (٣).

اما الموازنة الشعرية :فهي من مادة وزن ووازنت بين الشيئين موازنة ووزاناً وهذا يوزن هذا اذا كان على زنته او كان محاذيه (٤). ومن هذا المعنى جاء اصطلاح الموازنة الشعرية

---

(١) المديح ، ١٢٦ عن فؤاد البستاني ، كعب بن زهير ، ٣٢ .
(٢) لسان العرب ـ٣٥/٩ ـ ٣٧ ، ٤٨ .
(٣) معارضات البارودي ـ موازنة نقدية ، آداب الرافدين ، ١١ ، ١٩١/٩٠.
(٤) لسان العرب ، ـ٣٣٨/١٧ .

فوازن الشي بالشيء أي ساواه في الوزن وعادله ومائله وقابله وحاذاه ووازن الشاعر قصيدة غيره، اذا نظم قصيدة من بحرها وعلى وزنها ورويها نتيجة لاعجابه بها أو مباراتها والارتفاع عليها.

٩) معارضة علي بن محمد بن علي بن أحمد لقصيدة بانت سعاد :

ان اولى المعارضات لقصيدة بانت سعاد هي معارضة علي بن محمد بن علي بن أحمد بن مروان العمراني الخوارزمي (١) المتوفي عام ٥٦٠هـ. عارض في صباه قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد في قصيدة (٢) مطلعها :

أضاء برق وسجف الليل مسدول كما يهز اليماني وهو مصقول

والتكلف واضح من المطلع هذا بالاضافة إلى التشبيه الساذج المكرور الذي ذكره. واراد أن يقلد كعباً فبدأ بغزل متكلف خال من الجمال والابداع ولا أثر فيه لفن وابتكار فاستبدل سعاداً . بسعدى. وقلد مطلع قصيدة كعب ببيت يظهر فيه الضعف والتكلف حيث يقول :

منهاج وجدي بسعدى وهي نائية عني وقلبي بالأشواق متبول

ويمضي الشاعر في تقليد ابيات بانت سعاد بالفاظ وتراكيب صور وتبدو ظاهرة الضعف وتفصح عن تجربة الشاعر الشعورية غير المكتملة حيث يقلد بيت كعب الجميل الايقاع :

وما سعاد غداة البين اذ رحلوا إلا اغن غضيض الطرف مكحول

بقوله: لم يبق لي مذ تولى الظعن باكرة صبر ولم يبق لي قلب ومعقول

ماانسى لا أنسى إذ تجلو عوارضها والجفن بالأثمد الهندي مكحول

فأين التركيز المغني والايقاع الجميل والتراكيب القوية والمعاني الموحية من هذا التفصيل غير المنطقي وكم بدا الشطران الأخيران ثقيلين ولاسيما (لم يبق لي قلب ومعقول) فكيف أحب إذا مافقد عقله وقلبه؟! وما (أحج الأثمد الهندي) ونحن نعلم ان كعباً لم يذكر الهند الامرتبطة

---

(١) قرأ على الزمخشري فصار من اكبر اصحابه وعن الامام عمر الترجماني وهو مع العلم الكثير عالم في الدين والصلاح ، وكان يذهب مذاهب الرأي والعدل وله شعر حسن . معجم الادباء ـ ٥ / ٤١٢ ـ ٤١٣ .

(٢) م . س ٤١٣ ـ ٤١٤ .

بالسيوف والسيوف المسلولة استعملها تشبيهاً لقوة الرسول (ص) وسيطرته ، وإذا بمقلده لايستخدمها إلا نطعيين ، فأين هذا الاستعمال من ذاك وكأن الشاعر اعجب بالبيت الثالث من قصيدة بانت سعاد فطمح إلى تقليده ولكنه فشل ايضاً على الرغم من استعارته الصورة وبعض الالفاظ حيث قال :

كأنما ثغرها در إذا ابتسمت وريقها سحراً بالراح معلول

ولا ندري السبب في تحديد الزمن للريق بالسحر إلا إذا اعجزه النظم . واين مباشرة اللقطة ومأدبة الصورة من الايحاء الجميل والايقاع العذب والاستعمالات المعبرة في التركيب واللفظة في قول كعب :

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

ولا نجد في غزل الشاعر غير صور اشبعت تكراراً عند الشعراء الذين سبقوه تدل على ضعف شاعريته وتقليده وعدم اكتمال التجربة الشعورية لديه . فإذا ماانتقل إلى مدح الرسول (ص) بدا الضعف اشد في القصيدة وراح يسدد لنا اسماء الخلفاء الراشدين باسلوب تقريري ممل أقرب إلى الأجواء النثرية منها إلى الشعر والايماء

وصاحب المصطفى في الغار يتبعه وهو الذي ماله في الله مبذول
وتاوه عمر الفاروق أزهر أن رآه ابليس ولى وهو مخذول
واقتدى بابن عفان الذي فريت أوداجه وهو بالقرآن مشغول
وبالوصي ابن عم المصطفى فله مناقب جمة في شرحها طول

ويستمر الشاعر على هذا المنوال التقريري المباشر . ولم اشأ أن اوازن بين عظمة ابيات كعب في مدح المهاجرين وبين ابيات هذا الشاعر المقلد الذي لم يحسن حتى التقليد .

٢) معارضة تقي الدين الطبيب (١) :

لم نلمس في قصيدته التي عارض فيها قصيدة بانت سعاد أي ابداع بل جاءت تقليداً سيئاً أكد فيها على مدح الرسول (ص) واكتفى بابيات قليلة في الغزل لينتقل بعدها مباشرة إلى مديح الرسول باسلوب تقريري خال من الفنية الشعرية ونكتفي بأبيات نوردها دون موازنة لانها ظاهرة الضعف والتكلف ، ويقول الشاعر في مدح الرسول (ص) (٢) .

---

(١) هو شبيب بن حمدان الاديب الفاضل والطبيب الكحال توفي عام ٦٩٥ في مصر سمع ابن روزبة وكتب عنه الدمياطي وكان فيه شهامة وقوة نفس، فوات الوفيات ج٢ ٩٨-١٠٠ .

(٢) م . س ، ٩٨ .

ان النبي رسول الله إن لـــه مجدا تسامى فلا عرض ولا طول
مجداً كبا الوهم عن ادراك غايته وردّ عقل البرايا وهو معقـــول
مطهر شرف اللـــه العبادبـــه وساد فخراً بـه الاملاك جبريـــل
طوبى لطيبة بل طوبى لكل فتى له بطيب ثراها الجعد تقبيـــل

ولا حاجة بنا للتدليل على ضعف التركيب وضحالة الصورة وتكرار المعنى ونبو (العرض والطول) و (كبو الوهم) ولا (طيب الثرى الجعد) .

٣) معارضة الشهاب العزازي (٣) :

وقد عارض الشهاب العزازي قصيدة بانت سعاد بقصيدة مطلعها

دمـي باطلال ذات الخـال مطلـول وجيش صبري مهزوم ومغلول (٢)

بدأ الشهاب العزازي قصيدته بالغزل وحاول ان يعطي المعاني المادية التي اعطاها كعب في قصيدته ولكنه افاض وفصل على الخلاف من كعب الذي أوجز وأثر والتفت الى الخصائص الجسدية لمحبوبته ولم يلتفت الى النواحي المعنوية والاخلاقية كما فعل كعب فهو لكي يقلد البيت الثاني من قصيدة كعب ويعطي معنى الشطر الثاني منه استعان بثلاثة أبيات لم تستطع الوصول الى الابداع الفني الذي وصله كعب : يقول الشهاب العزازي :

ومن يـلاق العيـون الفاتكـات بـلا صبر يـدافع عنـه وهـو مـخـذول

* * * * *

وبي أغن غضيض الطرف معتدل القوام لدن مهز العطف مجدول

* * * * *

وكلمـا عـرضـت اجـفـان مقـلته يصح الاّ غـرامي فـهـو مـنـحـول

ومن يتملأ الابيات يجد ان تشبث الشاعر بالخصائص المادية والمحسنات البديعية قد افسد الصورة وحرم الشاعر الابداع .

ومثلما افسد الشاعر معنى البيت الثاني في قصيدة كعب افسد البيت الثالث ايضاً حيث قال :

سلافـة مـنـه تسبيني وسالـفـة وعاسـل مـنـه يصبيني ومعسول
يـا برق كيف الثنايـا للغرمـن لإضم يابرق أم كيـف لي منهـن تقبيـل

---

(١) هو احمد بن عبد الملك العزازي التاجر بقيسارية جركس الشاعر المشهور كان كيسا ظريفا جيد النظم في الشعر والموشحات المتوفى عام ٧١٠ ، فوات الوفيات حـ١ / ٩٥ – ١٠٥ .

(٢) م س ٩٥ – ٩٦ .

ومن يوازن بين هذين البيتين والبيت الثالث من قصيدة كعب يدرك الفرق الشاسع بين الشاعر والناظم . لقد افسد على الشاعر في بيتيه المحسنات البديعية في البيت الأول بين سلافة وسالفة وبين عاسل ومصول ولم يغنه في البيت الثاني شيئاً ولم يحقق الايقاع النغمي والتأكيد المرجو من التكرار .

وهكذا في بقية الابيات الغزلية . وعندما انتقل الى الرحلة لم يتمكن من تقديم لوحة فنية بل قدم صورة جامدة مستعارة من الشعر الجاهلي محرومة من الابداع الفني والجمال الشعري بدأ بقوله :

وياحداة المطايا دون ذي سلم عوجوا وشرقي بانات اللوى قيلوا

اما مديحه للرسول (ص) فهو مديح على نمط شعر المديح عند المتأخرين ، فهو يجهد نفسه للوصول الى معنى بيت كعب الرائع :

ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ولكن دون جدوى حيث يقول :

سلّ الاله به سيفا لملته وذلك السيف حتى الحشر مسلول

فأين تلك الاصالة من هذا التقليد واين ذلك الابداع من هذا النظم وحاول ان يبين اثر القرآن وتنزيله على الرسول في اضفاء الخلق والنبالة عليه (ص) فوق خلقه ونبالته ويقلد في ذلك بيت كعب الشهير ولكن بأسلوب تقريري واعظ :

أوفى النبيين برهاناً ومعجزة وخير من جاءه بالوحي جبريل

ويمضي الشاعر في مدح الرسول بنفس الاسلوب من التقريرية والوعظية لينتقل بعد ذلك الى مديح بني هاشم مقلداً مدح كعب للمهاجرين وفي الاسلوب التقريري ذاته :

نمته من هاشم اسد ضراغمة لها السيوف بيوت والقنا غيل

اذا تفاخر ارباب العلى منهم الز المفاوير والصيد البهاليل

لهم على العرب العرباء قاطبة به افتخار وترجيح وتفضيل

ولا اظنا بحاجة إلى المزيد من هذا النظم.

٤) معارضة ابي حيان الاندلسي (١) :

عارض ابو حيان الاندلسي قصيدة بانت سعاد بقصيدة تقع في ثلاثة وثمانين بيتاً مطلعها :

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول العقل مختبل والقلب متبول(٢)

وقد قسمها إلى ثلاثة اقسام : الغزل ويقع في ثلاثة عشر بيتاً على عدد ابيات الغزل عند كعب بن زهير. تحدث فيها عن السمات المادية والمعنوية لمحبوبته وهو لم يخرج في غزله عن الاسلوب التقليدي الذي شاع في فترته. وقد حاول الشاعر تقليد كعب في بعض الصور والمعاني والالفاظ ولكنه لم يستطع بلوغ الشأن الذي بلغه كعب . فاذا ما حاول تقليد البيت الثاني اورده بهذا الشكل :

والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج والخصر مختطف والمتن مجدول

وعلى الرغم من الايقاع الجميل للبيت و (غنج الطرف) وهي صورة موحية الاّ ان البيت لا يبلغ العمق الذي توصل اليه كعب (الاّ اغن غضيض الطرف مكحول) فأين في التأثير في النفس غض الطرف الذي يوحي بالحياء والفتنة معا من غنج الطرف الذي يدل على ان صاحبة الطرف فتاة لعوب غاوية.

واعجب ابو حيان الاندلسي بالبيت الثالث كما اعجب به كل من عارض قصيدة بانت سعاد فحاول ان يعطي ذات المعنى فعمم ولم يفصل كما فعل كعب واعطى صفة للريق حلوة المذاق ولكنها ليست باعثة على النشوة :

فالخمر مرمرة والنشر عنبرة والثغر جوهرة والريق معسول

ان اعجابه بكلمة (معلول) في بيت كعب الثالث دفعه إلى استعارة الشطر الثاني برمته لاعطاء صورة معكوسة للصورة التي قدمها كعب حيث قال :

تدير كأس شعوب من شعوبهم فكلهم منهل بالموت معلول

---

(١) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي اثير الدين ابوحيان الاندلسي الجياني النفزي ولد في غرناطة عام ٦٥٤هـ غادرها عام ٦٧٨ ضاربا في عرض البلاد حتى وصل القاهرة واستقر فيها حيث ألف الكثير من الكتب في الدراسات القرآنية واللغوية والنحوية وحظي من سلاطين مصر بحفاوة وتوفي عام ٧٤٥ . ديوان ابي حيان الاندلسي ١١ – ١٥ .

(٢) م . س ٤٦١ – ٤٧١ .

وقد تفرد الشاعر عن معارضي بانت سعاد بوصف تقلب مشاعر حبيبته (لبنى) ومطلها وتسويفها في مواعيدها محاكياً بذلك المعنى الذي قدمه كعب في قصيدته ولكنه افسد الصورة في ركضه وراء المحسنات البديعية ولا سيما كثرة الجناس فيها :

لبانة لك من لبناك ما قضيت وموعد لك منها الدهر ممطول
فعدٌ عن ذكر لبنى إن ذكركها على التنائي لتعذيب وتعليل

واذا كان كعب قد استخدم تشبيه ثياب الغول الملونة للتدليل على تقلب اخلاق سعاد وتبدلها فان اعجاب ابي حيان الاندلسي بهذا البيت دفعه إلى استخدام الغول في صورة اخرى حيث قال :

تطارد الوحش منه فيلق لجب حتى لقد ذعرت في بيدها الغول

ولا تمت مواعظ ابي حيان الاندلسي والتي اخذت واحدا وخمسين بيتا من قصيدته بأية صلة إلى قصيدة كعب ، فقد حدثنا ابو حيان الاندلسي عن الجهاد في سبيل الله وعن الحج . ومع بدء حديثه عن القرآن الكريم بدأ مدحه للرسول (ص) ولآل بيته وخلفائه وقد أخذ هذا المديح تسعة عشر بيتا من القصيدة ، تحدث فيها عن معجزات الرسول وسمو اخلاقه ومفاخر صحبه وعظمة الاسلام .

وان جاءت قصيدة ابي حيان الاندلسي افضل القصائد التي عارضت بانت سعاد فانها لم تبلغ المكانة التي بلغتها قصيدة كعب ولعل لروح العصر وتغير الاحوال الأثر الاكبر في هذا التباين :

٥) معارضة ابن نباته المصري (١):

وقد عارض ابن نباته المصري قصيدة بانت سعاد بقصيدة طويلة تقع في تسعة وسبعين بيتا (٢) خص منها اربعة وعشرين بيتا للغزل وخمسة وخمسين بيتا في مديح الرسول (ص) يقول في مطلعها :

---

(١) هو الامام العلامة جمال الدين محمد بن محمد بن نباته المصري مولده بمصر عام ٦٨٦ هـ ووفاته فيها عام ٧٦٨ له ديوان شعر وكتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون . ديوان ابن نباته المصري ٣٧٢ — ٣٧٥ .

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل

يبدأ الحديث عن ألم الفراق وما اصابه من سهد وانشغال بال بسبب هجر المحبوب ويأتي بصورة جمياة يصور فيها سهده وانشغاله وألمه لفراق المحبوب :

كأنما الأفق محراب عكفت به والنيران بأفقيه قناديل

ويحاول الشاعر أن يستعير الصور والالفاظ والتشابيه من قصيدة كعب فيصور دمعه المنساب وجدا كأنه الماء المنساب من الغرابيل ويأتي بالشطر الثاني كاملا من قصيدة بانت سعاد :

ما يمسك الهدب دمعي حين اذكركم الا كما يمسك الماء الغرابيل

ومثل هذه الاستعارة لشطر كامل من قصيدة كعب يحققه الشاعر في مجرى حديثه عن (سعاد) وتعلاتها ومماطلتها له حيث يقول :

بانت زخار فيها بالصبر واعدة وما مواعيدها الا الاباطيل

ويمضي الشاعر مع ذكريات الصبا ويعرج في حديثه عن الحاضر والشيب الذي ألم بلمته فيستعين بتشبيه ورد في قصيدة كعب وفي مكان مخالف لما استعمله هو فيه ويدلل ذلك على اعجاب الشاعر وافتنانه ببيت كعب وهو من الابيات المشهورة في الأدب العربي : حيث يقول :

لو كنت ارتاع من عذل لروعني سيف المشيب برأسي وهو مسلول

ويستعير ابن نباته اسم (سعاد) لمحبوبته تيمنا بقصيدة كعب ويأتي ببيت يظهر فيه براعته الشعرية وهو من اجمل ابيات القصيدة :

ابكي اشتياقاً اليها وهي قاتلتي يامن رأى قاتلا يبكيه مقتول

ويمضي الشاعر في وصف محاسن وجهها فاذا ما تحدث عن فمها واشنبها استعار الصور التي اوردها كعب ،واخذ الشطر الثاني برمته لشدة اعجابه به :

تفتر عن شنب حلو لذاقته في ذكره لمجاج النحل تعسيل

مصحح النقل عن شهد وعن برد لانه منهل بالراح معلول

وبعد ان ينتهي الشاعر من الغزل ينتقل الى مديح الرسول (ص)، ويبدأ بشوقه اليه وطلب الشفاعة منه . ويستعين بشطر كامل من قصيدة كعب حيث يقول :

إن لم أنل عملا ارجو النجاة فلي من الرسول باذن الله تسويل

ويحاول ابن بنانه ان يبين أثر القرآن الكريم وتنزيله على الرسول (ص) وما حققه للرسول (ص) وللاسلام من علو الكعب ورفيع الشأن وعظيم المنزلة فأعطى صورة شبيهة لتلك التي اعطاها كعب في قصيدته ، حيث قال :

ماذا عسى الشعراء اليوم مادحه ... من بعد ما مدحت حم تنزيل

وسرد الشاعر عظمة المسلمين ومواقف المهاجرين والانصار بابيات جميلة تداني في جمالها وروعتها ابيات كعب في مدح المهاجرين واستعار منه بعض الالفاظ ولكنه ابتكر صور اجديدة وجميلة ومعبرة : حيث قال :

يطيب في الليل تسبيح لسامرهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

قوم اذا ارقصت فرسانهم طربا ... كأن رايات ايديهم مناديل

للكابتون من الاجسام ما اعتبرت ... سمر وبيض فمنقوط ومشكول

حيث الحمام شهيّ وهو من صبر ... يجنى فيا حبذا الفرّ البهاليل

ويعود الشاعر مرة ثانية إلى صورة (السيف المسلول) فيستعير الشطر بكامله من قصيدة كعب في مدحه للرسول وتشبيهه به ، فيقول :

حتى أتى عربي يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

وكأن الشاعر لشدة اعجابه ببيت كعب اورده برمته دون تغيير اعجابا وتقديسا له : ويعود الشاعر إلى التأكيد على قصيدة كعب واهميتها وشهرتها وكأنه لم يكتف بمعارضتها او كأنه يطلب إلى القارىء الا يضع قصيدته موضع قصيدة كعب لأنها أقل منها شأنا من حيث الشاعرية والابداع الفني والمعاني والصور . وان جاءت في رأينا افضل القصائد التي عارضت قصيدة كعب فيقول :

إن كان كعب بما قد قال ضيفك في ... دار النعيم فلي في الباب تطفيل

وابن كابن زهير لي شذا كلم ... ربيعها بغمام القرب مطلول

وان سمى بزهير صيغه فعسى ... يسمو بنيت له بالشبه تعليل

بانت معاذير عجزي عن نداك وعن ... بانت سعاد وقلبي اليوم متبول

وانتهى ابن نباته بقصيدته إلى التوجه إلى الرسول (ص) طالبا شفاعته في الدنيا والآخرة متخذا اسلوب التخاطب المباشر آملاً في المغفرة والرحمة في الدارين :

موازنات بانت سعاد :

وازن كل من ابن الساعاتي والبوصيري قصيدة بانت سعاد نتيجة لاعجابهما بها : والموازنة

ان يلجأ الشاعر إلى قصيدة فينظم في وزنها وقافيتها ورويها وبعض معانيها (١) بغية الاتيان بقصيدة افضل منها تتفوق عليها وتتجاوزها اوتكون بمستواها على الأقل . والمعارضة اشمل من الموازنة واوسع فقد يجري على منوالها في الاغراض والموضوعات وفي بعض التراتيب والالفاظ . وقد يستعير منها اشطرا يضمها الى قصيدته كما فعل ابن نباته مثلا في معارضته لقصيدة بانت سعاد .

موازنة ابن الساعاتي (٢) لقصيدة بانت سعاد :

لقد مدح ابن الساعاتي الرسول (ص) ووازن بها بانت سعاد في قصيدته (٣) التي مطلعها

جد الغرام وزاد القال والقيل وذو الصبابة معذور ومعذول

وتقع القصيدة في أربعة وسبعين بيتا ، ابتدأها بالغزل الذي استغرق خمسةوعشرين بيتاً من القصيدة ، ووصل الغزل بالمديح ببيتين وصف فيهما عناء الرحلة والسفر وخص مدح الرسول وصحبه بسبعة واربعين بيتاً .

فاذا ما وقفنا عند غزله لانجد شبها كبيراً في المعاني ولااشتراكا في الصور كما لاحظنا في المعارضات ، فهو يتحدث عن حبيبته الحسناء التي اسماها بدمية الحي ويؤكد أن حبه لها عذري ويشكو ألم بعدها وفراقها ويبكي الطلول بصيغة تظهر فيها روح العصر والمحسنات البديعية كقوله :

ظللت في الدار ابكيها ويضحكها دمع على تلكم الاطلال مطلول

ويصفها وصفا ماديا ويشبه غنجها وتمايلها بمن شرب الخمرة حتى الثمالة :

لدن المعاطف لاتصحو شمائله كأنما هو بالصهباء مشمول

وعندما ينتقل إلى وصف الفم والريق يشبه مذاقهما بطعم العسل :

وسنان استقى بعطفيه وريقته فآفتي عاسل منه ومعسول

ويصور يوم الفراق واللوعة والأسى اللتين شملتاه مستخدما لفظتي السيف المسلول ولكن في استعمال مختلف وبصورة مختلفة متأثرة بشعراء عصره :

---

(١) الآمدي ، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، ٦

(٢) ولد ونشأ في دمشق وفيها قضى الشطر الاكبر من حياته ثم رحل إلى مصر حيث توفي فيها وعمره لم يتعد الحادية والخمسين وقد اتصل منذ حداثته بالامراء الايوبيين ورجالهم وقد كان من الظرفاء يحب مجالس اللهو والطرب ، ولوع بالحياة شديد التعلق بها . مقدمة الديوان

(٣) ديوان ابن الساعاتي ج١ ٤٧ — ٥٠

قالوا بكيت دماً والعيس سائرة بكل خال به في الحي مشغول
والومض يغمص في جفني صارمه لاغرو للسيف يدمي وهو مسلول
وقفت والدمع جار يوم بينهم وكيف امضي وحد الصبر مغلول

فاذا مابعد عنه المحبوب وارتحل سكن الكون من حوله وكأنما لحظة الحياة قد توقفت. ولم يأت الشاعر بعد ذلك بصور جديدة فكلما قاله قد استنفد من قبل الشعراء من قبله . ثم يدرك ان اليأس لايتفق والحياة مادام الأمل بالرسول (ص) كبيرا فيبدأ مدحه له وهو الغرض الاساس في القصيدة :

وكيف أخمل في دنيا وآخرة ومنطقي ورسول الله مأمول .

ويمضي في مدح الرسول على نمط المدائح النبوية ويؤكد عظم رسالته بنزول الوحي عليه وتنزيل القرآن الكريم بصيغة تختلف عما اوردها كعب ومعارضوه :

مرتل الوحي يتلوه ويدرسه ولم يكن لكلام الله ترتيل

ويمضي في الحديث عن الدين الاسلامي وكيف ظهر وترعرع وعن كتاب الوحي ومالاقاه الرسول(ص) وصحبه من ظلم الكافرين وعنتهم ويعطف في الحديث على واقعة بدر وعلى قتال المسلمين ضد الكفار . ويعطي صورة جميلة لقتال المسلمين من أجل الدعوة الاسلامية ونشرها والقضاء على الكفار :

فالنفس والبيت اشباه مطهرة والآل والصحب انجاد مفاضيل
من كل ازهر والألوان حائلة من طينة الحسن والايمان مجبول
يردي الكمي ويروي رمحه قصدا فرمحه قاتل للقرن مقتول

ويشبه الشاعر الرسول بالليث ويصف أسلحة المسلمين ودروعهم بصيغ مختلفة عما لمسناه في قصيدة كعب :

ليث إذ أجر من ذيل الحديد لغير الكبد فالجيش مكفوف ومشلول
ان صال أو قال أودى في مواقفه مجدل من اعاديه ومجدول
السادة القادة الحامون دينهم بالمشرفية والبيض المقاويل

ويصور ايمانهم وتفانيهم في الجهاد في سبيل الله :

العاملون بأن النفس هالكة يوما وان قضاء الله مفعول
فما كواحدهم في فضله أحد ولا كجيلهم في فضله جيل

وينهي قصيدته بالرجاء لنوال الأجر :

وأنني لأرجـي أجـر حيهـم في يوم حيهم أجر وتنويـل

موازنة البوصبري (١) :

وازن البوصيري قصيدة بانت سعاد في قصيدته المسماة (ذخر المعاد في وزن بانت سعاد) (٢) والتي مطلعها :

إلى متى باللـذات مشغـول وانت عن كـل ماقدمت مسئـول

وتقع في أربعة ومئتي بيت . خص منها ثلاثة وعشرين بيتاً للحكمة وهي التي بدأ بها قصيدته . وجعل واحدة وثمانين ومائة بيت لمديح الرسول وآله وصحبه .

وتعد من أفضل ماقيل في المدائح النبوية . وأفضل القصائد المعارضة والموازنة لقصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير ، وقد تمتاز عنها بايمان عميق وعقيدة راسخة ومعرفة تامة بالدين الاسلامي وتعلق كبير وحب شديد للرسول (ص) فانبعثت قصيدته عن عاطفة صادقة وتجربة شعورية مكتملة فظهرت بمظهر قشيب وايقاع متناغم جميل وموعظة حسنة وتفصيل أخاذ لكل مايتعلق بالرسول الكريم (ص) من حيث الخصال والفعال ، والعقيدة والادارة ، والحكم والتوجيه ، والنبوة ونشر الاسلام . فهي بحق درة من درر الشعر العربي لما احتوته من اصالة وقوة وتأثير . على الرغم من أن الشاعر يتواضع في عرضها ويؤكد في أبيات قدمها في أواخر قصيدته على انها لاتوازي قصيدة كعب . ويؤكد أيضاً بأن حبه للرسول (ص) واعجابه بالقصيدة دفعاه إلى تقديم قصيدة في وزنها ومن دون تقليد لها أو نسج على منوالها ، وهو في قوله محق كل الحق ولكن إذا امتلكت قصيدة بانت سعاد قدرة من الفنية والابداع والصدق الشعوري في طلب العفو والاعتذار من الرسول (ص) فان قصيدة البوصيري لاينقصها الابداع ويوشيها تجربة شعورية صادقة وحب مخلص جارف للرسول (ص). وقد تفتقد قصيدة بانت سعاد مثل هذا الحب الجارف

---

(١) هو محمد بن سعيد الصنهاجي . المغربي الأصل والبوصيري المنشأ وتقع بوصير في فيوم مصر ولد عام ٦٠٨ هـ وتوفي عام ٦٩٦ هـ وقد اقبل على دراسة علوم الدين والأدب والتصوف وعمل في الحسبة وكان يجلس احيانا في جامع الظاهر ينشد مدائحه النبوية على الحاضرين وفتح كتابا لتحفيظ القرآن

(٢) ديوان البوصيري ١٧٢ — ١٨٥

والاخلاص العارم والمعرفة الواسعة بالاسلام وشرائعه والرسول الكريم (ص) ومثله.
يقول البوصيري متواضعاً وهو يتعرض إلى قصيدة كعب :

لم انتحلها ولم اغصب معانيها ... وغير مدحك مغصوب ومنحول
وما على قول كعب ان توازنه ... فربما وازن الدر المثاقيل
وهل تعادله حسنا ومنطقها ... عن منطق العرب العرباء معدول
وحيث كنا معا نرمي إلى غرض ... فحبذا ناضل منا ومنضول
ان اقف آثاره إني الغداة بها ... على طريق نجاح منك مدلول
لما غفرت له ذنباً وصنت دماً ... لولا ذمامك أضحى وهو مكلول
رجوت غفران ذنب موجب تلفي ... له من النفس املاه وتسويل
وليس غيرك لي مولى أومله ... بعد الاله وحسبي منك تأميل
ولي فؤاد محب ليس يقنعه ... غير اللقاء ولا يشفيه تعليل

لانجد في قصيدة البوصيري أي بيت في الغزل ، فقد بدأ قصيدته في الحكمة واستغرقت ثلاثاً وعشرين بيتاً بينما لم يرد كعب في قصيدته غير بيتين في الحكمة فقط ، ونجد في بعض أبيات البوصيري الحكمة معنى بيتي كعب الداثرين حول الموت وتفاهة الحياة ولكن بصورة مختلفة كل الاختلاف ، يقول البوصيري :

فجرد العزم ان الموت صارمه ... مجرد بيد الآمال مسلول

× × ×

ورحت تعمر دار الابقاء لها ... وانت عنها وان عمرت منقول

وفي حكميات البوصيري تذكرة بالفناء والامم البائدة والعقائد القديمة ويربط بين الموت والشيب وتقدم الحياة في الانسان إلى دار الفناء . فإذا ماانتقل إلى مديح الرسول (ص) وآله وصحبه ، تغنى باخلاق الرسول (ص) العالية وتحدث عن النبوة وتنبؤ الديانات الأخرى بها ، وتحدث عن جبريل ونزول القرآن ومعجزات الرسول وحسن قيادته وحكمته وكيد اليهود له وللاسلام ، ومضى في الحديث عن فعال الرسول وأعماله العظيمة وتحدث باسهاب عن الغزوات والانتصار الذي حققه فيها المسلمون بفضل الايمان وحسن العقيدة والقيادة الحصينة للرسول (ص) . ثم ينتقل الشاعر إلى مدح أهل البيت وأصحاب الرسول (ص) ويتهى إلى طلب الشفاعة والرحمة في الآخرة ، ويتواضع وهو يقارن قصيدته بقصيدة كعب وينهى البوصيري قصيدته الرائعة بقوله :

دامت عليك صلاة الله يكفلها من المهيمن ابلاغ وتوصيل
ما لاح ضوء صباح فاستر به من الكواكب قنديل فقنديل

ومن بين الصفات العديدة المادية والمعنوية التي يذكرها البوصيري للرسول (ص) يقف عند المهابة والوقار اللذين تحلى بهما الرسول الكريم (ص) ، وان جاء بنفس المعنى الذي اورده كعب الاّ ان الصورة اختلفت تماماً عند الشاعرين فالمهابة التي ذكرها كعب في مهابه حاكم قوي ينظر اليها الشاعر من المخارج ، اما المهابة التي ذكرها البوصيري فهي مهابه بني اختاره الله لقيادة أمة ونشر تعاليم السماء في الارض ، ونظرها من الداخل والخارج معاً فجاءت أقوى اثراً وأشد منعة يقول البوصيري

من كمل الله معناه وصورته فلم يفسه على الحالين تكميل
وخصه بسر قدر منه له في انفس الخلق تعظيم وتبجيل
فللنبوءة إتمام ومبتدأ به وللفخر تعجل وتأجيل

واذا كان كعب قد ذكر التنزيل والقرآن على انهما زادا من اخلاق الرسول كرما على كرمه وسماحه على سماحته ، فان رؤية البوصيري المتفهم للاسلام وشرائعه يرى في نزول القرآن ملاذا وحكمه وخلاصاً للبشرية بأسرها لما يحويه من الشرائع السامية والمثل الحميدة والخصائص العالية حيث يقول :

إن رمت اكبر آيات وأكملها كفاك من حكم القرآن تنزيل
لله كم افحمت امنها مناحكم منه وكم أعجز الالباب تأويل
يهدي الى كل رشد حين يبعثه الى المسامع ترتيب وترتيل

واذا قدم كعب قصيدته الى الرسول (ص) يطلب الرحمة والعفو والأمان فان البوصيري يسأله الشفاعة له في الآخرة والمغفرة له عما ارتكب في الحياة الدنيا من ذنب لأنه موقن بان محمداً (ص) ما ارسله الله الاّ فضلاً وبركة الى العالمين :

وما محمد الا رحمة بعثت للعالمين وفضل الله مبذول
هو الشفيع اذا كان المعاد غدا واشتد للحر تخويف وتهويل

واذا كان كعب قد تطرق في قصيدته الى مواقف المهاجرين وتضحيتهم بأنفسهم في سبيل الاسلام وصور شجاعتهم وسموا اخلاقهم ابدع تصوير ، فقد صور البوصيري هذه التضحية

وتلك الشجاعة بالنسبة للمسلمين كافة مهاجرين وانصاراً ابدع تصوير حيث يقول :

والخيل ترقص زهوا بالكماة وما غير السيوف بأيديهم مناديل
ولا مهور سوى الارواح تقبلها البيض البهاتير والسمر العطابيل
فلو ترى كل عضو من كمائهم مفصلا وهو مكفوف ومشلول
كأحرف شكلت خطاً فاكثرها بالطعن والضرب منقوط ومشكول

وكما صور كعب اعداء الرسول (ص) والكافرين في موقف الخسران والخذلان والحطة، أمعن البوصيري في تعميق تلك الصورة اذ قال :

وردٌ أوجههم سودا واعينهم بيضا من الله تنكيد وتنكيل
سالت وساءت عيون منهم مثلا كأنما كلها بالشوك مسمول
ابغض بها مقلا قد اشبهت لبنا طغا الذباب عليه وهو ممقول

واذا تشابهت المعاني مع اختلاف الصور في بعض الابيات بين قصيدتي كعب والبوصيري فان البوصيري قد استعار بعض الالفاظ من قصيدة كعب واستعملها استعمالا مخالفا احيانا واستعمالا مشابها في أحايين قليلة من قصيدته .

فقد استعمل جملة (بالراح معلول) ولكن بصورة مخالفة تماماً لاستعمال كعب لها حيث قال :

وكل جرح بجسم يستهل دماً كأنه مبسم بالراح معلول

واستعار في بيت آخر شطرا كاملا من قصيدة كعب حيث قال :

لاتمسك الدمع من حزن عيونهم الاّ كما يمسك الماء الغرابيل

وكأن البوصيري اعجب باستخدام كلمة (الفيل)في قصيدة كعب فاستعملها استعمالاً مخالفا تماما ولم يوردها مجرد تشبيه كما فعل كعب في قصيدته وانما اوردها باسلوب قصصي حكى فيه غزو ابرهة للكعبة الشريفة :

وانظر سماء غدت مملوءة حرسا كأنها البيت لما جاءها الفيل

ولعلنا نلمس تأثير قصيدة البوصيري في قصيدة تلميذه ابي حيان الاندلسي حتى كاد الامر يصل في بعض ابيات الاندلس إلى حد التقليد لابيات من قصيدة البوصيري ان قصيدة عظيمة كقصيدة بانت سعاد تستحق كل هذا الاهتمام من الشعراء فهي بالاضافة إلى قيمتها الدينية والتاريخية عمل ابداعي خالد .

المصـــــادر

١) الاغاني. ابو فرج الاصفهاني، تحقيق عبدالكريم ابراهيم الفرباوي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠

٢) جمهرة اشعار العرب، ابو زيد القرشي، القاهرة، ١٩٦٧

٣) حديث الاربعاء، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣

٤) دائرة المعارف الاسلامية، مجموعة من العلماء، القاهرة، ١٩٣٢

٥) ديوان ابن الساعاتي، تحقيق انيس المقدسي، م. الاميركانية، بيروت، ١٩٣٨

٦) ديوان ابن نباتة المصري، نشر محمد القلقيلي، م. التمدن، القاهرة، ١٩٠٥

٧) ديوان ابي حيان الاندلسي، تحقيق احمد مطلوب وخديجة الحديثي، م. العاني، بغداد، ١٩٦٩

٨) ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، م. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥

٩) السيرة النبوية، اسماعيل ابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، م. الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤

١٠) شرح بانت سعاد، رشيد عبدالرحمن العبيدي، مجلة كلية الآداب، العدد ١٨، ١٩٧٤

١١) شرح ديوان زهير، صنعه ابو العباس ثعلب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤

١٢) شرح ديوان كعب بن زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥

١٣) شرح قصيدة بانت سعاد، ابراهيم الباجوري، دار الاحياء، القاهرة، ١٣٤٥هـ

١٤) شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين، محمود عبدالله الجادر، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٩

١٥) فن المديح، احمد ابو حاقة، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦٢

١٦) فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكبتي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣

١٧) في الادب الجاهلي، طه حسين، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٢
١٨) قصيدة بانت سعاد بين التاريخ والنقد، يونس احمد السامرائي ، مجلة الدراسات الاسلامية، العدد الثاني، ١٩٦٨
١٩) الكامل في اللغة والأدب، ابو العباس المبرد، م. نهضة مصر ، القاهرة، بلا
٢٠) لسان العرب ، ابن منظور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بلا
٢١) مختارات من روائع الأدب في الجاهلية والاسلام، عبدالسلام سرحان، م. الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٩
٢٢) معارضات البارودي موازنة نقدية، عمر محمد الطالب، مجلة آداب الرافدين، العدد ١١، ١٩٧٩
٢٣) معجم الادباء، شهاب الدين ياقوت الحموي، م. الهندية، القاهرة، ١٩٢٨
٢٤) الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري، الآمدي ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢